

علم البيان

مقدمة:

المجاز طريق من طرق الإبداع البياني في كل اللغات، تدفع إليه الفطرة الإنسانية المزودة بالقدرة على البيان، واستخدام الحيل المختلفة للتعبير عما في النفس من معان تريد التعبير عنها.

وقد استخدمه العربي في العصور المختلفة، في الحضر والبادية، استخداما بارعا، حتى بلغت اللغة العربية في مجازاتها مبلغا يثير الإعجاب بعبقرية العربي، وكان للشعراء والبلغاء، أساليب عجيبة من المجاز، لا يدركها إلا الأذكياء والفظناء، المتمرسون بأساليب التعبير غير المباشر عن أغراضهم¹.

وليس اللجوء إلى المجاز لمجرد التلاعب بالكلام والعدول عن المعاني الحقيقية للكلمات والعبارات إلى معان أخرى، ولكن لابد من ضرورة تُلجئ الأديب إلى ذلك، حين يكون التعبير بالحقيقة غير مُجدِّ، ولا يحقق الغاية المنشودة، فضلا على أن للمجاز روابط وعلاقات فكرية تربط بين المدلول الحقيقي للفظ والمعنى المجازي، يتنبه إليه المتلقي ويفهمه بالقرينة اللفظية أو الحالية، أو الفكرية.

دواعي المجاز وأغراضه: يمكن ذكر أهمها فيما يلي:

أولا: أن المجاز في الكلام هو من أساليب التعبير غير المباشر، الذي يكون في معظم الأحيان أوقع في النفوس وأكثر تأثيرا من التعبير المباشر.

ثانيا: يشتمل المجاز غالبا على مبالغة في التعبير لا توجد في الحقيقة، والمبالغة ذات دواعي بلاغية متعددة، منها: "التأكيد - التوضيح - الإمتاع بالجمال - الترغيب عن طريق التزيين والتحسين - التنفير عن طريق التشويه والتقبيح - إلى غير ذلك.

ثالثا: يتيح استخدام المجاز فرصا كثيرة لابتكار صورة جمالية بيانية لا يتيحها استعمال الحقيقة، فمعظم أمثلة التصوير الفني الرائع مشحونة بالمجاز.

رابعا: استخدام المجاز يمكن المتكلم من بالغ الإيجاز مع الوفاء بالمراد ووفرة إضافية من المعاني والصور البديعة.

1 البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني الدمشقي، ج 2 ص 225

خامسا: المجاز بالاستعارة أبلغ من التشبيه، فما سبق بيانه في دواعي التشبيه وأغراضه موجود في الاستعارة مع أمور أخرى لا توجد في التشبيه.

سادسا: المجاز المرسل أبلغ من استعمال الحقيقة في كثير من الأحيان إذا كان حال متلقي البيان ممن يلائمهم استخدام المجاز، ويشد انتباههم لتدبر المضمون وفهمه¹.

الحقيقة والمجاز:

الإسناد الذي هو أساس الجملة يقسم إلى قسمين: **إسناد حقيقي وإسناد مجازي**.

فالإسناد الحقيقي هو إسناد الفعل إلى فاعله الحقيقي.

الإسناد المجازي وهو أن يسند الفعل إلى غير ما يعتقد أنه هو له في الواقع ملاحظا علاقة ما أو ملابسة ما تسمح له بأن يسند هذا الإسناد، دون أن يتهمه أحد بالكذب².

1. الحقيقة: « اللفظ المستعمل فيما وضع له في اصطلاح التخاطب ».

مثل: لفظ "الأسد" حينما يستعمل للدلالة على الحيوان المفترس المعروف بأنه ملك الوحوش³، وتنقسم إلى حقيقة عقلية وحقيقة لغوية.

أ. الحقيقة العقلية: إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر⁴، مكن تصنيفها إلى أربعة أصناف.

أقسام الحقيقة العقلية: تنقسم الحقيقة العقلية إلى أربعة أقسام⁵:

الأول: ما طابق الواقع والاعتقاد، كقول المؤمن: "أنبت الله الزرع" إذا كان المخاطب يعلم أن المتكلم مؤمن، ينسب الآثار كلها لله، أو كان يجهل حاله، إذ المفهوم من ظاهر حال المتكلم أنه مؤمن، وأن الإسناد إلى ما بني الفعل له في يقينه واعتقاده.

الثاني: ما طابق الواقع فقط، كقول الكافر وهو يخفي حاله عن المخاطب: "شفى الله المريض" فالظاهر من حال المتكلم أنه مؤمن يعتقد ما يقوله، إذ إنه لم ينصب قرينة على أنه كافر، بل ستر حاله وأخفاها.

¹ البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني الدمشقي، ج 2 ص 227-228

² البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني الدمشقي، ج 1 ص 195

³ البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني الدمشقي، ج 2 ص 128

⁴ الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ج 4 ص 40

⁵ المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني، ج 4 ص 44-42

الثالث: ما يطابق الاعتقاد فقط. كقول الكافر: "أنبت الغيث الشجر" إذا كان المخاطب يعلم أن المتكلم كافر، يضيف الإنبات إلى الغيث، أو كان يجهل حاله، إذ المفهوم من ظاهر حاله حينئذ أنه كافر يعتقد ما يقول، وأن الإسناد إلى ما بني الفعل له في اعتقاده.

الرابع: ما لم يطابق الواقع، ولا الاعتقاد. كقولك كذباً: "زارني محمد" وأنت وحدك، دون المخاطب تعلم أنه لم يزرك، فالمفهوم من ظاهر حالك حينئذ أنك صادق فيما تقول، وأن الإسناد إلى ما بني الفعل له في اعتقادك.

فكل هذه الأقسام الأربعة من قبيل الحقيقة العقلية؛ لأن الفعل أسند في جميعها إلى ما حقه أن يسند إليه عند المتكلم في ظاهر حاله.

وإن كانت الحقيقة في ذات اللفظ سميت "حقيقة لغوية" نسبة إلى اللغة، كلفظ "أسد" المستعمل في الحيوان المفترس في قولك: "رأيت أسدًا في غابة" فلفظ "أسد" لم يتصرف فيه بشيء، بل استعمل في معناه الأصلي.

الحقيقة اللغوية¹: هي الكلمة المستعملة في المعنى الذي وضعت له، وتسمى بأسماء تختلف باختلاف الواضع.

1. فإن كان الواضع من أرباب اللغة الفصحاء، سميت "حقيقة لغوية" فقط، كلفظ "الأسد" المستعمل في المعنى الذي وضعه له أهل اللغة "وهو الحيوان المفترس".

2. وإن كان الواضع من أهل الشرع، سميت "حقيقة لغوية شرعية" كلفظ "الصلاة"، المستعمل في المعنى الذي وضعه له أهل اللغة الشرعيون "وهو الأفعال والأقوال الخاصة".

3. وإن كان الواضع طائفة خاصة "كالنحاة" مثلاً، سميت "حقيقة لغوية اصطلاحية"، كلفظ "الفاعل" المستعمل في المعنى الذي وضعه له علماء اللغة النحاة، وهو الاسم المرفوع بعد فعل مبني للمعلوم أو شبهه.

4. وإن كان الواضع غير طائفة بعينها، سميت "حقيقة لغوية عرفية" كلفظ "دابة" المستعمل في المعنى الذي تواضع عليه الناس وتعارفوه، وهو ذات الأربع من الدواب كالحمار، والفرس².

1 الحقيقة اللغوية والمجاز اللغوي لا يحتاجان إلى تقيدهما باللغويين، إلا في مقام المقارنة بينهما وبين الحقيقة العقلية، والمجاز العقلي، للترفة بينهما.

2 المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني، ج 1 ص 98

2. المجاز: هو «استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي».

رد ابن قتيبة على من أنكروا المجاز وزعموا أنّ الكلام كله حقيقة ولا مجاز فيه، فقال: «لو كان المجاز كذبا لكان أكثر كلامنا باطلا، لأنّنا نقول: نبت البقل، وطالت الشجرة، وأينعت الثمرة، وأقام الجبل ورخص السعر...¹.

وعند ابن رشيق القيرواني «456 هـ» أنّ «المجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة، وأحسن موقعا في القلوب والأسماع، لاحتماله وجوه التأويل، فصار التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز، إلا أنّهم خصوا بالمجاز، بابا بعينه²، وذلك أن يسمّى الشيء باسم ما قاربه أو كان منه بسبب، كما قال جرير بن عطية:

إذا سقط السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ *** رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابًا

أراد **المطر** لقربه من **السماء**، ويجوز أن تريد «بالسماء» **السحاب**، لأنّ كل ما أظلك سماء، وقال «سقط» يريد سقوط المطر الذي فيه، وقال «رعيناه»³ والمطر لا يرعى، ولكنه أراد «النبت» الذي يكون عنه فهذا كله مجاز»⁴.

وأشار كذلك إلى ولع العرب بالمجاز فقال: «والعرب كثيرا ما تستعمل المجاز، وتعدّه من مفاخر كلامها، فإنّه دليل الفصاحة، ورأس البلاغة، وبه بانّت لغتها عن سائر اللغات»⁵.

بين الحقيقة اللغوية والمجاز: الحقيقة هي حقيقة الألفاظ في دلالتها على المعاني، وليست بالحقيقة التي هي ذات الشيء، أي نفسه وعينه، فالحقيقة اللفظية إذن هي دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له في أصل اللغة، والمجاز هو نقل المعنى عن اللفظ الموضوع له إلى لفظ آخر غيره، كنقل الكرم والجود من لفظ الكريم الجواد إلى لفظ البحر. فالاسم الموضوع بإزاء المسمى هو حقيقة له، فإذا نقل إلى غيره صار مجازا.

1 العمدة لابن رشيق، ج 1 ص 236

2 يقصد المجاز المرسل وهو قسم من أقسام المجاز اللغوي.

3 هي القرينة التي تصرف إرادة المعنى الحقيقي للجمله، أي إرادة سقوط السماء، بل المراد سقوط شيء من السماء وهو المطر.

4 العمدة لابن رشيق ج 1 ص 236.

5 العمدة لابن رشيق ج 1 ص 236.

ومثال ذلك أنا إذا قلنا «بحر» أردنا به هذا الماء العظيم المجتمع الذي طعمه ملح، وهذا الاسم له حقيقة لأنّه وضع بإزائه، وكذلك إذا قلنا «شمس» أردنا به هذا الكوكب العظيم الكثير الضوء، وهذا الاسم له حقيقة لأنّه وضع بإزائه.

فإذا نقلنا «الشمس» إلى الوجه المليح استعارة كان ذلك له مجازاً لا حقيقة، وكذلك إذا نقلنا «البحر» إلى الرجل الكريم الجواد استعارة كان ذلك له مجازاً لا حقيقة¹، وبهذا يرى ابن الأثير أنّ لفظ «الشمس» له دالتان، إحداهما حقيقية وهي هذا الكوكب العظيم الكثير الضوء، ولا يمكن أن يقال إنّ هاتين الدالتين سواء، وإنّ الشمس حقيقية في الكواكب والوجه المليح.

والمرجع في هذا وما يجري مجراه إلى أصل اللغة التي هي وضع الأسماء على المسميات، ولم يوجد فيها أنّ الوجه المليح يسمى شمساً، وإنما أهل الخطابة والشعر هم الذين توسعوا في الأساليب المعنوية فنقلوا الحقيقة إلى المجاز، ولم يكن ذلك من واضع اللغة في أصل الوضع، ولهذا اختص كل منهم بشيء اخترعه في التوسعات المجازية.

إنّ المجاز أولى بالاستعمال من الحقيقة في باب الفصاحة والبلاغة، لأنّه قد ثبت وتحقق أنّ فائدة الكلام الخطابي هي إثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير حتى يكاد ينظر إليه عياناً.

ألا ترى أنّ حقيقة قولنا: «زيد أسد» هي قولنا: «زيد شجاع»، لكنّ هناك فرقا بين القولين في التصوير والتخييل وإثبات الغرض المقصود في نفس السامع، لأنّ قولنا: «زيد شجاع» لا يتخيل منه السامع سوى رجل جريء مقدام، فإذا قلنا: «زيد أسد» يخيل عند ذلك صورة الأسد وهيئته وما عنده من البطش والقوة ودق الفرائس، وهذا لا نزاع فيه².

أقسام المجاز: يقسم علماء البلاغة المجاز إلى قسمين:

1. المجاز العقلي: ويكون في الإسناد، أي في إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له، ولا يكون إلّا في التركيب³.

1 كتاب المثل السائر ص 24

2 المثل السائر ص 25 - 26

3 علم البيان، عبد العزيز عتيق، ص 143

2. المجاز اللغوي: ويكون في نقل الألفاظ من حقائقها اللغوية إلى معان أخرى بينها صلة ومناسبة، وهذا المجاز يكون في المفرد، كما يكون في التركيب المستعمل في غير ما وضع له، وهذا المجاز نوعان:

أ- **الاستعارة:** وهي مجاز لغويّ تكون العلاقة فيه بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي المشابهة.

ب- **المجاز المرسل:** وهو مجاز تكون العلاقة فيه غير المشابهة، وسمّي مرسلًا لأنّه لم يقيد بعلاقة المشابهة، أو لأنّ له علاقات شتى.